الفصل الأول

من معارف علوم القرآن وصلتها بموضوع الدراسة

(السورة مناط التحدي ـ وحدة الغرض في السورة أهم أسس العلاقات ـ علم المناسبات وصلته بموضوع الدراسة ـ كلامهم في الحروف المقطعة وصلته بالكشف عن العلاقات)

أولا : السورة مناط التحدي :

اختلف العلماء في قدر المعجز ، قال أبو بكر الباقلانى (ت : ٤٠٣هـ) «الذي ذهب إليه عامة أصحابنا ـ وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري في كتبه ـ أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة ، قصيرة كانت أو طويلة ، أو ما كان بقدرها . قال : فإذا كانت الآية بقدر حروف السورة ، وإن كانت سورة الكوثر ، فذلك معجز .

وذهبت المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة ، وقد حكي عنهم نحو قولنا ، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة ، بل شرط الآيات الكثيرة»[1].

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص٢٥٤، والبرهان للزركشي ١٠٨/٢، ١٠٩ .

والبقاعي يبني رأيه في هذه المسألة على اعتبار (من) ـ في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم ﴾ (البقرة:٢٣) ـ تبعيضية[1] ـ ثم يجمل آراء العلماء في قدر المعجز ـ يقول : « وحكمة الإتيان بمن التبعيضية في هذه السورة دون بقية القرآن ، أنه ـ سبحانه ـ لما فرض لهم فيها الريب الذي يلزم منه زعمهم أن يكونوا اطلعوا على مثيل ، أو سمعوا أن أحدا عثر له على شبيه اقتضى الحال الإتيان بها ، ليفيد أن المطلوب منهم في التحدي قطعة من ذلك المثل الذي ادعوه حكيمة المعاني متلائمة المباني ، منتظم أولها بآخرها ، كسور المدينة في صحة الانتظام ، وحسن الالتئام ، والإحاطة بالمباني ، التي هي كالمعاني ، والتقاء الطرفين حتى صار بحيث لا يدرى أوله من آخره ، سواء كانت القطعة المأتي بها تباري آية أو ما فوقها لأن آيات القرآن كسوره يعرف من ابتدائها ختامها ، ويهدي إلى افتتاحها تمامها ، فالتحدي هنا منصرف إلى الآية بالنظر الأول، وإلى ما فوقها بالنظر الثاني.

والمراد بالسورة هنا مفهومها اللغوي ، لأنها من المثل المفروض ، وهو لا وجود له في الخارج ، حتى يكون لقطعه اصطلاح في الأسماء معروف ، ولأن معرفة المعنى الاصطلاحي كانت مخصوصا بالمصدقين ، ولو أريد التحدي بسورة من القرآن لقيل : فائتوا بمثل سورة منه ، ولما كان هذا المراد قصرهم في الدعاء على من بحضرتهم من الشهداء ، والتحدي بسورة

---

(١) وقد ذكروا أن (من) في الآية إما أن تكون ابتدائية ويعود الضمير في مثله على محمد ﷺ وإما أن تكون للبيان ويعود الضمير للمنزل ، ورجحوا هذا الوجه ، أو أن تكون تبعيضية أي بسورة أي بمقدارها ، أو أن تكون زائدة . البحر المحيط ١٠٤/١، ١٠٥ الفتوحات الإلهية ٢٧/١، ٢٨ .

يشمل أقصر سورة كالكوثر ، ومثلها في التحدي آية مستقلة توازيها وآيات ، كما قاله الإمام جلال الدين المحلي في (شرح جمع الجوامع) وسبقه الإمام شمس الدين البرماوي ، ونقله إمام الحرمين في الشامل ، وعن كلام الفقهاء في الصداق ـ فيما لو أصدقها تعليم سورة فلقنها بعض آية ، وسبقهما العلامة سعد الدين التفتازاني ، فقال في تلويحه على توضيح صدر الشريعة ـ المعجز هو السورة ، أو مقدارها ، هكذا ذكر الذين تكلموا في الإعجاز من الأصوليين وغيرهم ـ أن التحدي وقع بسورة من القرآن ، والصواب أنه إنما وقع بقطعه آية فما فوقها ، لأن المراد بالسورة مفهومها اللغوي لا الاصطلاحي .

ونقل كلام الخطابي ، ثم علق عليه قال : «وأول كلامه يميل إلى أن الإعجاز بمجرد النظم من غير نظر إلى المعنى ، وآخره يميل إلى أنه بالنظر إلى النظم والمعنى معا من الحيثية التي ذكرها ، وهو الذي ينبغي أن يعتقد ، لكن في التحدي بسورة واحدة أما بالعشر فبالنظر إلى البلاغة في النظم فقط»[1] .

والبقاعي ـ رحمه الله ـ يرجح المعنى اللغوي للسورة ، لكن التسوير من خصائص الذكر الحكيم ، ولئن كان شيوخنا ناظرين إلى نزول القرآن منجما آنذاك ، فلقد نزلت سورة الأنعام ، وهي من الطوال ـ جملة واحدة ، ثم البقاعي نفسه يصرح ـ في كتابه (نظم الدرر) في كثير من المواطن ـ برد خاتمة السورة على أولها ، ورد مقطعها على مطلعها ، وصرح بذلك علماء المناسبات ، ثم إن سورة القرآن سميت بذلك ـ كما ذكر الأئمة والبقاعي ـ

(١) نظم الدرر ١/١٦٥-١٨١ .

لمشابهتها بسورة المدينة (حائطها المشتمل عليها)[1] وفاتحة السورة ، وخاتمتها هما حائطاها ، وذلك مطرد في سور القرآن ، وغير مطرد في آياته .

والفن الذي يعالجه هذا البحث ذو علاقة وثيقة بخلاف العلماء في قدر المعجز ، ولعل الذي عَدَّد الآراء في هذا الأمر ، تعدد آيات التحدي ، وقد وقعت في الذكر الحكيم بحسب ترتيب المصحف الشريف في سور (البقرة ـ يونس ـ هود ـ الإسراء ـ الطور) .

قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٣) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس:٣٨) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود:١٣)

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (الطور:٣٣، ٣٤) .

وكلها سور مكية عدا سورة البقرة ، ولعل ذلك هو الذي حمل العلماء على وقوع الإعجاز بأقل من سورة ، نظرا لظروف التنزيل آنئذ ، لكن كثيرا

(١) يراجع مثلا المفردات مادة سور ص٢٤٨ واللسان مادة سور ص٢١٤٧، ٢١٤٨.

من السور المكية ـ إن لم نقل معظمها ـ قد اكتمل تنزيله في مكة ، ناهيك بسورة الأنعام أطول المكيات .

وكان تعدد آيات التحدي مجالا لبسط القول في توجيه هذا التعدد ، والوجه عند أبي حيان أنه « تحداهم أولا بعشر سور مفتريات قبل تحديهم بسورة ، إذ كانت هذه السورة مكية ، والبقرة مدنية ، وسورة يونس أيضا مكية ، ومقتضى التحدى بعشر أن يكون قبل طلب المعارضة بسورة ، فلما نسبوه إلى الافتراء طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ؛ إرخاء لعنانهم . . . وقال ابن عطية : وقع التحدي في هذه الآية بعشر ، لأنه قيدها بالافتراء ، فوسع عليهم في القدر ، لتقوم الحجة غاية القيام ، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية بسورة مثله ، دون تقييد في مماثلة تامة في غيوب القرآن ونظمه ووعده ووعيده ، وعجزوا في هذه الآية بأن قيل لهم : عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير ، والغرض واحد واجعلوا مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه ، فهذه غاية التوسعة ، وليس المعنى عارضوا عشر سور بعشر ، لأن هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة ، ولا يبالي عن تقديم نزول هذه على هذه ، ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة ، إنما هو بسبب الريب ، ولا يزيل الريب إلى العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة »[1] .

والوجه عند الفيروزأبادي ـ في الكلام على آية يونس « أن ما في هذه السورة تقديره : بسورة مثل سورة يونس ، فالمضاف محذوف في السورتين ، وما في هود إشارة إلى ما تقدمها من أول الفاتحة إلى سورة هود ، وهو

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٨ .

عشر سور»[1] ولعله ناظر إلى ما روي عن ابن عباس «أن السور التي وقع بها طلب المعارضة لها هي معينة البقرة وآل عمران . . .» قال ابن حيان : ولعل هذا لا يصح عن ابن عباس ، واحتج لذلك بأن هذه السور أكثرها مدني[2] ومنهم من وجه هذا التعدد بالتدرج في التحدي[3] .

ونحا الشيخ محمد رشيد رضا منحًى آخر فقال : «لعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة ، إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز ، وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة ... كأنه يقول : أدع لكم ما في سورة القصص من الأخبار عن الغيب ، وأتحداكم أنتم ، وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن في قصصها ، مع السماح لكم بجعلها قصصا مفتراة . . . وأما اكتفاؤه في سورة يونس بعدها بالتحدي بسورة واحدة في مقام الرد على قولهم (افتراه) ، فلأنه لم يقيد بكونها مفتراة ، لا من باب التخفيف عليهم بالواحدة . . . فعلم من هذا التفضيل أن التحدي بإعجاز القرآن لذاته في جملته ، والتحدي ببعض أنواع إعجازه في عشر سور مثله ، وبسورة مثله كلاهما ثابت في السور المكية قبل نزول آية البقرة ، وسورتها بعد الهجرة في المدينة المنورة»[4].

وقد رد الأستاذ سيد قطب هذا الرأي قائلا : «ونحسب ـ والله أعلم ـ أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد ، وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين

---

(١) بصائر ذوى التمييز ٢٤١/١، ٢٤٢ .

(٢) البحر المحيط ٢٠٨/٥، وغرائب القرآن ١٢/١٢ .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ٤١٨/٣، والفتوحات الإلهية ٣٨٤/٢، والبرهان ١١٠/٢ .

(٤) تفسير المنار ١٦١/١، ١٦٢ .

وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة فيقول مرة ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور دون ترتيب زمني ، لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن»[١] والرأي الأرجح ـ فيما نرى ـ في توجيه هذه الآيات (التدرج في التحدي) وأن التحدي وقع بالسورة ، كما تنص على ذلك آيات الذكر الحكيم ، وأن المراد بالسورة المعنى الاصطلاحي .

والذين قالوا : إن التحدي يقع بالسورة قالوا : إنه «يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت ، أو قصيرة ، لأنها نكرة في سياق الشرط ، فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين»[٢] والتحدي ـ عند الفخر الرازي ـ لا يقع بالسور القصار ـ إلا في حالة ما «إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز»[٣] .

وفي الفوائد ـ المنسوب لابن القيم أن التحدي ما وقع «إلا بسورة منكرة أي سورة كانت ، فهذا دليل على أن القرآن العظيم قد اختيرت أقصر سورة فيه من المعاني البديعة ، والفصاحة التي تسد بها عن معارضة الذريعة»[٤] ثم ضرب مثلا بسورة الكوثر .

وقد ذكروا للتسوير فوائد منها :

١- أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع ، واشتمل على أصناف كان أحسن وأنبل وأفخم .

---

(١) في ظلال القرآن ١٨٦١/٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٦٢/١ .
(٣) مفاتيح الغيب ٥١٤/١ .
(٤) الفوائد ص ٢٥٢، ٢٥٣ .

٢- تنشيط السامع .

٣- أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه[١] .

٤- أن تلك السور متخالفة المقادير فهي كأنواع من جواهر نفيسة متفاوتة الأحجام[٢] .

٥- أن الحكمة في تسوير القرآن سورا تحقيق كون السورة بمجردها معجزة ، وآية من آيات الله ، والإشارة إلى أن كل سورة نمط مستقل[٣].

والفخر الرازي يجعل التحدي بسورة «يدل على أن القرآن وما هو عليه من كونه سورا ، هو على حد ما أنزله الله تعالى ، بخلاف قول كثير من أهل الحديث : إنه نظم على هذا الترتيب في أيام عثمان ، فلذلك صح التحدي مرة بسورة ، ومرة بكل القرآن»[٤] .

وصفوة القول ما ذكره ابن عاشور في وجه التحدي بسورة في قوله «وإنما وقع التحدي بسورة أي سورة وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه ، بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه ، وانتقال الأغراض ، والرجوع إلى الغرض وفنون الفصل والإيجاز والإطناب

---

(١) ينظر : الكشاف ٢٣٩/١ .

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف بهامش الكشاف ٢٣٩/١ .

(٣) الإتقان ٨٧/١ .

(٤) مفاتيح الغيب ٥١٤/١ .

والاستطراد والاعتراض ، وقد جعل شرف الدين الطيبي هذا هو الوجه لإيقاع التحدي بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات»[1] .

وفننا هذا الذي نعالج من أهم ما يرجع إلى مجموع نظم الكلام ، ولعل هذا البحث يدلك لصحة ما تقرر لدى العلماء من أن وحدة التحدي هي السورة .

ثانيا : وحدة الغرض في السورة أهم أسس العلاقات :

الذي عليه أكثر أهل العلم أن السور القرآنية تتعدد أغراضها نظرا لظاهر نصوص القرآن الكريم ، واستنادا لما تحويه سور الذكر الحكيم من قصص الأنبياء وأمور الغيب ، وأمور العقائد ، والتشريعات ، وقد نجد كل هذا في سورة واحدة كالطوال والمثاني والمئين ، ولم تخلص سورة لغرض واحد كسورة يوسف عليه السلام وهذا أمر شائع ومتعالم بين كثير من أهل العلم .

والذي عليه جماعة من العلماء ـ كالبقاعي والشاطبي وأبي القاسم المشدالي ومن المحدثين العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز والأستاذ سيد قطب والمرحوم مصطفى الرافعي ـ أن السورة ذات غرض واحد ، وتتنوع الموضوعات فيها وفاء بهذا الغرض الأصلي ، وقد شاع ذلك في حديثهم عن المناسبات .

فالعلامة أبو القاسم المشدالي يقرر أن «الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب . . . فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن»[2] .

---

(١) التحرير والتنوير ١/١١٤ .

(٢) نظم الدرر ١/١٨ .

وتلميذه البقاعي ـ رحمه الله ـ طبق هذه القاعدة في كتابه (نظم الدرر) فيذكر مثلا في سورة البقرة قوله : «وإن شئت قلت : مقصود هذه السورة وصف الكتاب فقط ، ما عدا ذلك فتوابع ولوازم»[1] .

«وقد ظهر لى باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ ـ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب ـ أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها ، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه ـ عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه ـ ذلك هو الذي أنبأ به آدم ﷺ عند العرض على الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها»[2] وكذلك بيان مقصود كل سورة هاد إلى تناسبها مع مطلعها كما سيكشف عن هذا الأمر البحث عن العلاقات .

وقد أفرد ـ رحمه الله ـ كتابا لهذا الغرض سماه «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» أو «المقصد الأسمى في أن اسم كل سورة مطابق للمسمى» ومع استصحاب ما ذكره البلاغيون في علاقات المجاز المرسل ، واشتراطاتهم فيما يصلح أن يعبر به عن الكل ، وتقريرهم أن يكون هذا الجزء له مزيد اختصاص بالمعنى الذي قصد بالكل[3] .

والناظر في الأساليب التي تستعمل هذه العلاقة يتبين له أنه لا يقوم المعنى بغيرها ، بالنظر إلى مساقات الكلام ـ مع استصحاب ما ذكرت يتدبر في ضوئه أسرار تسمية السور باسم موضوع من موضوعاتها ، وقد

---

(١) نظم الدرر ١/٧٧ .

(٢) المرجع نفسه ١/١٩، ٢٢، ٢٣ .

(٣) راجع في هذا مثلا المطول ص٣٥٦ ، ومواهب الفتاح ٤/٣٥، وعروس الأفراح ٤/٣٧، والتصوير البيانى دراسة تحليلية لمسائل البيان ص٣٥٥ ، الدكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .

يكون أقلها مساحة في السورة الكريمة وكأنه إشارة هادية إلى اتحاد مقصود كل سورة .

ودونك الشاطبي وهو يعالج هذا الأمر في سورة «المؤمنون» يذكر أن «سورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة ، وإن اشتملت على معان كثيرة ، فإنها من المكيات ، وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد ، وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى . **أحدها :** تقرير الوحدانية لله الواحد الحق . . . **والثاني :** تقرير النبوة للنبي ﷺ . **والثالث :** إثبات أمر البعث والدار الآخرة . . . فإذا تقرر هذا ، وعدنا إلى النظر في سورة المؤمنين مثلا وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه ، إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة ، التي هي المدخل للمعنيين الباقيين ، وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم ، أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن جاءت فكانت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها ، وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاحتباء من الله تعالى . . .»[1] .

والشاطبي ينبهنا إلى استقراء هذا المعنى الذي اختصت به سورة (المؤمنون) في الذكر الحكيم لبيان الخصيصة البيانية له في سورة (المؤمنون) . . . وذلك أمر قرره الشاطبي في موطن آخر من الموافقات ـ في الكشف عن الجهة التي يختص بها لسان العرب (من جهة كونها ألفاظا وعبارات مفيدة ، دالة على معان خادمة ، وهي الدلالة التابعة . . . فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية ، وذلك الإخبار ، فإن كل خبر يقتضي في هذه الجهة أمورا خادمة لذلك الإخبار ، بحسب المخبر

(١) الموافقات للشاطبي ٣/٤١٦، ٤١٧ .

والمخبر عنه والمخبر به ، ونفس الإخبار في الحال والمساق ونوع الأسلوب . . . ثم يتنوع أيضا بحسب تعظيمه أو تحقيره . . . وبطول الباع في هذا النوع يحسن مساق الكلام ، إذا لم يكن فيه منكر ، وبهذا النوع الثاني اختلفت العبارات ، وكثير من أقاصيص القرآن ، لأنه يأتي مساق القصة في بعض السور على وجه ، وفي بعضها على وجه آخر ، وفي ثالثة على وجه ثالث)[1] .

ثم نعود إلى البقاعي ـ رحمه الله ـ الذي يعد أبا عذرة هذا الباب ـ فهو يضع منهاجا وسنَنًا لا حِبًّا لدراسة موضوعنا في الذكر الحكيم في قوله : « فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها ، ويستدل عليه فيها ، فترتيب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه ، وأبدع نهج ، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استدل عليه ، وهكذا في دليل الدليل وهلم جرا ، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتدأ ، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النظر عليه على نهج آخر بديع ومرقى غير الأول منيع ، فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية ، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدرر ، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر ، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها ، وشعبة ملتحمة بما بعدها ، وآخر السورة قد واصل أولها ، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها ، وعانق ابتداؤها ما قبلها ، فصارت كل سورة دائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغر البديعة النظم العجيبة الضم بلين تعاطف أفنانها وحسن تواصل ثمارها وأغصانها ولأجل اختلاف مقاصد

(١) الموافقات للشاطبي ٢/٦٦، ٦٨ .

السور تتغير نظوم القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك المقصد»[1] .

وهذا الذي ذكره ـ رحمه الله ـ «مما لا تناله يد المتناول ، ويقصر على عليائها كل متطاول» . لأنه يقتضي إحكام فهم قضايا السورة وتناسبها ، ورد آخرها على أولها ، والحكومة في كل ذلك للأسلوب الذي هو علم البلاغة . وكما قال الشاطبي : «المسافات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهذا معلوم في علم المعاني والبيان ، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره ، بحسب القضية وما اقتضاه الحال منها ، لا ينظر في أولها دون آخرها ، ولا في آخرها دون أولها ، فإن القضية وإن اشتملت على جمل ـ فبعضها متعلق بالبعض ، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد ، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره ، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ، فإن فرق في النظر في أجزائه ، فلا يتوصل به إلى مراده فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض الأجزاء دون بعض»[2] .

ومع أن كلامه ـ رحمه الله ـ في الكلام على الأدلة تفصيلا ، إلا أنه يكشف لنا مشقة معالجة الأساليب بحسب المساقات ، وخطر فهم الأساليب بمعزل عن سياقها ، مما ينتج مضيعة لمقصود الشارع ، يستغفر أهل العلم ربهم منها وما أرى لمشتبه النظم إلا أنه معلم دال على هذا الباب ، وتنبيه إلى خطره وإلا فالأساليب في لغتنا متسعة للكشف عن المعاني دون التضييق بذكر الأسلوب ببعض المخالفة في التراكيب . وهذا

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ١/١٥١، ١٥٢ .

(٢) الموافقات للشاطبي ٣/٣١٣ .

التخالف في بعض التراكيب ـ أيضا ـ يعد تنبيها إلى وحدة الروح البيانية لكل سورة ، فلكل سورة نمطها في النظم وروحها في التركيب ، وذلك هو ما قرره الرافعي ـ رحمه الله ـ فبعد ما ذكر هذا الأمر قال : «فإذا أنت حرفت ألفاظه من مواضعها ، أو أخرجتها من أماكنها . . . . . حصلت معك ألفاظ كغيرها ، بما يدور في الألسنة ، ويجري في الاستعمال ورأيتها في الحالين لغة واحدة ، كأنما خرجت من لغة إلى لغة ، لبعد ما كانت فيما صارت إليه ، بيد أنك إذا تعرفت ألفاظ اللغة على غير هذا الوجه في كلم عربي غير القرآن أصبت أمرا بالخلاف ، ورأيت لكل لفظة روحا في تركيبها من الكلام ، فإذا أفردتها وجدتها قريبة مما كانت ، لأنها هي نفسها التي كانت من روح ، ولم يكن لهذا التركيب في جملته روح خاصة بالنسق والنظم فعلى كل لفظة معنى في الجملة كما أعطتها اللغة معنى في الإفراد ، حتى إذا أبنتها وميزتها من هذه الجملة ضعفت ونقصت وتبينت فيها الوحشة والقلة ، شبيه الذي يعرض للغريب إذا نزح عن موطنه وبان من أهله . . . وهذه الروح التي أومأنا إليها روح التركيب»[1].

وقد تعلق الدكتور محمد رجب البيومى بهذا القول فذكر أن «السورة الواحدة بهذه الروح ذات طابع مستقل متميز ، ولو أنك أدغمت آيات من سورة كريمة إلى آيات من سورة أخرى لوجدت ـ حتى مع اتحاد الموضوع ـ نشازا منكرا لا يقبله ذوق ، أو يستسيغه منطق ، واقرأ ـ إن شئت ـ سورة القمر وسورة هود وميدانهما معا الحديث عن أنبياء الله السابقين . . . ثم حاول أن تلحق نصا من هذه بنص من تلك ، فستجد من الانفصام والتخاذل ما يمنعك أن تقوم جادا بهذه المحاولة .

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩ .

هذا والموضوع هو الموضوع ، والعبرة هي العبرة ، ولكن الروح التركيبية للبلاغة القرآنية تمنع هذا الخلط الكريه»[1] .

وقد قرر هذا أحد الباحثين في القصص القرآني وذكر أن «الأحداث المتماثلة يجتمع بعضها إلى بعض في مساق واحد ، وفي عرض متصل في سورة أو بعض سورة . . . ففي أكثر من سورة من القرآن الكريم ، جمعت أحداث كثيرة لعدد من الأنبياء ، حيث تتماثل الأحداث وتتشاكل الوقائع ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة»[2] .

والأستاذ سيد قطب يقرر أن لكل سورة شخصيتها ، ويحاول تطبيق ذلك في ظلال القرآن فيقول مثلا : «ومن ثَمَّ يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية متميزة ، شخصية لها روح يعيش معها القلب ، كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس . . . وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا ولا يشذ عنه هذه القاعدة طوال السور»[3] .

وقد عالج العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز سور (البقرة ويونس وهود) ثم لخص نتيجة هذه المعالجة فقال : «ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحددا ، يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة ، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية ، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر ، وإنما يحتل كل جزء

(١) البيان القرآني الدكتور رجب البيومي ص١٨٣ .
(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص٤٤ .
(٣) في ظلال القرآن ١/٢٧، ٢٨ .

المكان المناسب له في جملة السورة وأخيرا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة »[1] .

وذلك يوضح إعجاز الله في كتابه الناطق (القرآن) كما هو ظاهر في كتابه الصامت (خلق الله) لأن مصدر الكتابين واحد[2] ، وكما أن لكل من مفردات الخلق سمات وملامح في الكتاب الصامت ، فكذا مفردات الكتاب الناطق (السور) فيما ارتضيناه من أن أقل قدر في التحدي السورة قصيرة كانت أو طويلة .

وكل سورة بمثابة الإنسان لها مقصود هو روحها وقلبها وترابط موضوعاتها بمثابة ترابط جوارح الإنسان مقابلة بمفردات الكتابين المعجزين « والواقع أنه قد يصعب في بعض السور التمييز بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية أو اكتشاف العلاقة بين هذه الأفكار بعضها وبعض ، أو بينها وبين النواة المركزية للسورة ، وقد تجهل حتى الظروف التي استدعت التجمع بينها في سورة واحدة »[3].

لكن استكشافه في الذكر الحكيم ينأى بنا عن الخطر في فهم بلاغة الذكر الحكيم ولما كان استكشاف هذا الأمر بعيد المنال اكتفى كثير من الباحثين بالقول بتعدد ـ أغراض السورة الواحدة ، استنادا لظاهر سور القرآن ، ورضًى بالنظرة العجلى وبعدا عما يحتاج في تفهمه إلى شدة تكلف وكثرة تَعَمُّل كما قال الشيخ دراز ـ رحمه لله ـ .

---

(١) المدخل إلى القرآن الكريم ص١١٩ .

(٢) أفدنا هذا التعبير من تقديم شيخنا الأستاذ الدكتور إبراهيم الخولي لأسلوب التعريض في القرآن الكريم ص أ .

(٣) المدخل إلى القرآن الكريم ص١٢٢ .

وقد انتهى أحد الباحثين عن الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم إلى عدة نتائج :

١- أن السورة الواحدة وحدة كاملة لها هدف واحد قد يستتبع أغراضا مختلفة غالبا .

٢- السورة الواحدة لها طابع خاص في اللفظ والسياق والفواصل وختام الآيات ولها في الوصول إلى هدفها طرق خاصة .

٣- كل موضوع ذكر في السورة سواء كان قصة أو غيرها ، فهو مناسب كل المناسبة للسورة .

٤- إذا كرر الموضوع الواحد فهو في كل سورة يناسبها شكلا وموضوعا .

٥- لم تتكرر القصة الواحدة في سورة واحدة أبدا[١] .

ومما مضى بيانه ظهر لنا أن وحدة الغرض في السورة القرآنية أهم عناصر العلاقات ، فيقرر مقصود كل سورة ، ويكشف عن علاقته بالمطلع ، كما سنحاول بيانه هذه الدراسة .

ثالثا : علم المناسبات وصلته بموضوع الدراسة :

ومما له صلة وثيقة بدراستنا علم المناسبات ، واستكشاف موضوع السورة الأصلي من أجل ما يعقد بين آيات السورة ، والمناسبة في القرآن الكريم تكون بين أجزاء الآية فيلائم اللفظ اللفظ كقوله تعالى : ﴿ **تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا** ﴾ (يوسف:٨٥) فالتناسب بين أغرب ألفاظ القسم ، وأغرب صيغ الأفعال الرافعة للاسم الناصبة للخبر

(١) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ص٥٢، ٥٣ ، الدكتور محمد محمود حجازى .

ظاهر وملاءمة اللفظ للمعنى المراد وغير ذلك ، والتناسب بين الآيات يكون ظاهرا بأن تكون الآية الثانية سببا للأولى كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ (آل عمران:٢٣، ٢٤) أو تكون الثانية تقريرا لمعنى الأولى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ (غافر:٣٨، ٣٩) أو تكون مؤكدة لهما : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ ﴾ (غافر:٤١، ٤٢) أو تكون الثانية مفسرة للأولى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (المعارج:١٩، ٢١) أو تقع من سابقتها موقع الاعتراض ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (الواقعة:٧٥، ٧٦) أو تكون الثانية واقعة من الأولى موقع الإيضاح بعد الإبهام ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (الشورى:٥٢، ٥٣) ومن المناسبات ما لا يظهر ارتباطه ، وهو إما أن يكون معطوفا أو غير معطوف ، ويكون التناسب بين الآيات بالمطابقة كقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ (الليل:٥) أو بمراعاة النظير ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (طه:١١٨، ١١٩) وغير المعطوف يكون بالنظير بأن تكون الآية الثانية مماثلة للأولى أو مقاربة لها ، وغير ذلك من المناسبات .

وللقرآن مزية على كل كتاب هو أنه يتعدى التعانق بين الآي إلىالتعانق بين السور ، وتكون المناسبات بين السورة تارة خفية وتارة ظاهرة ، وقد

تكون المناسبة لفظية كقوله تعالى : ﴿ وَإِدْبَرَ ٱلنُّجُومِ ۝ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ وقد تكون باتحاد الموضوع بين السورتين (كالمائدة والأنعام) ، وقد تتناسب فاتحة السورة مع فاتحة ما قبلها كآل حم ، وقد تكلموا على مناسبة فواتح السورة وخواتمها ويكثر في المصحف الشريف مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها ، وقد تتناسب السورتان بالتقابل فإن الكوثر كالمقابلة للماعون ، وقد يكون التناسب بالتضاد ، وقد تكون الثانية مجملة للأولى أو مفصلة لها كفصلت وغافر ، وقد تكون السورة معترضة بين السورتين»[1] .

وهكذا يتسع مجال النظر عند الأئمة إلى معاقد الآيات والسور في الذكر الحكيم ، وذلك أمر معين على استكشاف العلائق بين المطالع والمقاصد في سور الذكر الحكيم ، وقد ترك السلف تراثا عظيما في هذا الفن كان معينا على بيان العلائق كما سيأتى في مواضعه فإن القرآن الكريم له مطلع هو فاتحة الكتاب ، وله خاتمة هي المعوذتان هما طرفاه وما بينهما سلسلة من السور متواصلة ومتعانقة ، كما نهض ببيان هذا أو شيء منه علماء المناسبات .

رابعا: كلامهم في الحروف المقطعة وصلته بالكشف عن العلاقات:

كان افتتاح تسع وعشرين سورة من القرآن الكريم بالحروف المقطعة ، تلك التي لم ينقل عن العرب دلالات لها ، ولو كانت لها دلالات لتواتر النقل عليها ولنقل ذلك علماء الصحابة وكأن افتتاح السور بها ـ فيما أرى ـ داعية التوجه لمحاولة كشف أسرارها ، ووجودها في مطالع السور ، معلم

(١) راجع الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ، ص ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤١٣، ٤١٧ .

دال على أهمية افتتاحات السور القرآنية ، لذا لم تقع ـ على كثرة مواقعها في الذكر الحكيم ـ في غير مطالع السور .

ولما لم تكن لها دلالات معلومة كان للعلماء بشأنها موقفان : « ذهب الشعبي وسفيان الثوري ، وجماعة من المحدثين إلى أنها سر الله في القرآن وهي من المتشابه وقال الجمهور من العلماء : بل يجب أن يتكلم فيها ، وتلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها »[1] .

وقد استجاد كثير من العلماء الوجه الثاني ، استبعادا لأن يحتوي كتاب الله على ما لا يفهم ، وقد تواترت النقول عن ابن عباس ـ ترجمان القرآن ـ بشأن تأويلها وغالب الظن أنها اجتهادات له ـ رحمه الله ـ وهو إمام الناس قاطبة في فتح مغاليق الذكر الحكيم ـ لذلك اتسع مجال القول بشأن هذه الفواتح بل خصها جماعة بمؤلفات ، فلابن أبي الأصبع « الخواطر السوانح في أسرار الفواتح » ، ومن المحدثين دكتور محمد أبو فراج في « الحروف المتقطعة في أوائل السور القرآنية » ، دكتور محمد بدري عبد الجليل « براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور » .

وقد أكثر ابن أبي الأصبع من التفسيرات الرياضية ، والحسابات الفلكية لهذه الحروف ، وقد حاول الباحث الأخير أن يضع مفهوما لهذه الحروف ، وأن يربط هذا المفهوم بمقاصد السورة ، قياسا على ما قدمه من تفسير لافتتاح قصائد الشعراء بأسماء محبوبات لا حقيقة لها في الواقع ، وربطه موضوع القصيدة بهذا الاسم الذي انتهى إلى أنه رمز ، واستنادا لما جاء في اللسان وغيره من معان لأسماء الحروف كمعنى (الألف) و(الحاء) و ...إلخ .

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١٣٨/١ وما بعدها .

يقول : « فلأمر ما نرجو ألا نهمله نص علماء الرسم القرآني على كتابة فواتح السور حروفا ، ولأمر ما نرجو ألا نغفله نص علماء القراءات على نطق فواتح السور كلمات ، وبقدر ما اختلف المسلمون حول الحكمة ، أجمعوا على أنها استهلالات ابتدئ بها ، ومن ثَمَّ كان مصطلح براعة الاستهلال ، بما هو إشارة في الصدر إلى المقصود وما قد يمت إليه من مصطلحات معينة على الكشف »[1] .

وقد فسر كل الحروف المقطعة بما جاء لمعانيها في لغة العرب على أية حال فهو اجتهاد ، لكنه يتكئ على المذهب الرمزي ، ولئن صح هذا التفسير له ـ مع شدة التكلف ـ في مثل (ق) و (ص) و (ن) فكيف يصح في (آل حم) هل تتفق موضوعات السور السبعة تمام الاتفاق كما اتفقت افتتاحاتها ، وما قوله في (آلم) وفي (طسم) وغير ذلك ، أنه يفسر كل حرف بمعناه ، ثم يفرض إيجاد تفسير لتكرر الحروف في الافتتاح ، وعلى ما بذله من مجهود وما أخصب به بحثه من مراجع فإن فيما توصل إليه خطرا شديدا ينبغي أن ينأى بكتاب الله عنه ، ثم إن منهجه لم يطرد له وحسب فساد المنهج عدم اطراده .

وعلى اتساع القول بشأن تأويل الحروف المقطعة[2] ، رجح القول بأن : « تلك الحروف علامات دالة ، ورموز منصوبة فحواها أن هذا القرآن الذي

---

(١) براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور ص٢١٥ .

(٢) فقال تأولوا لها معاني كثيرة منها :

١- أنها اسم من أسماء القرآن .

٢- أو فواتح يفتح الله بها القرآن .

٣- أسماء للسور التى وردت فيها . ==

أعجز العرب أمره وبان لهم وجه التحدي فيه ، ليس بلغة غير لغتهم ، بل هو مؤتلف من مادة اللغة التي يحذقونها».

واستأنسوا لذلك بأمور منها :

(١) أن ستا وعشرين سورة ـ مما فواتحه حروف مقطعة ـ مكية النزول ، وقد كانت فترة تحد وعناد .

(٢) معظم هذه السور فيها حديث بعد الفواتح مباشرة عن سمو القرآن وعلو طبقته .

(٣) أن هذا الرأي أبعد ما يكون عن النقد .

(٤) أنه يلتقي مع غيره من الآراء[1] .

== ٤- اسم الله الأعظم .
٥- قسم أقسم الله به وهو من أسمائه .
٦- حروف مقطعة من أسماء وأفعال كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر .
٧- حروف هجاء موضوع .
٨- حروف يشتمل كل حرف منها على معانٍ شتى مختلفة .
٩- حروف من حساب الجمل .
١٠- لكل كتاب سر وسر القرآن فواتحه .
١١- ابتدئت بذلك السور ليفتح لاستماعه أسماع المشركين .
١٢- أو أنها علامات لأهل الكتاب أنه سينزل على محمد كتاب يفتتح بالحروف المقطعة . يراجع في ذلك سورة البقرة ، جامع البيان ، المحرر الوجيز لابن عطية ، البحر المحيط ، مفاتيح الغيب ، تفسير ابن كثير ، تفسير أبى السعود محاسن التأويل للقاسمى ، الجامع لأحكام القرآن ، البرهان ١٦٩/١، الإتقان .

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ١٥٩/١ وما بعدها ، دكتور عبد العظيم المطعنى ، مكتبة وهبة .

«وقال القاضي أبو بكر : إنما جاءت على نصف حروف المعجم كأنه قيل : من زعم أن القرآن ليس بآية ، فليأخذ الشطر الباقي ، ويركب عليه لفظا معارضة للقرآن»[١] لا سيما أنها «نزلت في المرحلة التي بلغ فيها عتو المشركين أقصى المدى ، وأفحشوا في حمل الوحي على الافتراء والسحر والشعر والكهانة ، فواجههم القرآن بالتحدي»[٢] .

ويستحسن الدكتور زكى مبارك رأى المسيو بلانشو في القول بأنها رموز صوتية وأنه «من المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية ، ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين في كل شيء ، حتى في الأصوات الموسيقية ، فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل وأن تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين»[٣] .

ثم توقف في قبوله على ما تكشف عند دراسة أصول الموسيقى في الكنائس الحبشية والشامية ، ولو كان كذلك لنقل عنهم أيضا ، ولأغنى ذلك علماءنا عن كثرة التأويلات التي أوجزتها .

ويرى الأستاذ عبد الكريم الخطيب أن هذه الحروف «ترسم لمرتل القرآن أسلوبا خاصا في التلاوة»[٤] ، وهو رأي يقبل بعد درس القرآن على المستوى الصوتي لما تفتتح به السور من الحروف المقطعة وآيات هذه السور مما يكشف لنا عن العلاقة الصوتية بين مطلع السورة ومقصدها .

---

(١) البرهان ١/١٦٧ .

(٢) الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق ص ١٦٦ .

(٣) النثر الفنى زكى مبارك ١/٤٧ .

(٤) التفسير القرآني للقرآن ١/٢٣ .

فقد ذكر أحد الباحثين أن «الفاقهين من العلماء تتبعوا الحروف المقطعة في أوائل السور ، فوجدوا أن كل سورة من هذه السور ، قد اختصت بما بدئت به فلم تكن لترد (آلم) في موضع (آلر) . . . وذلك لأن هناك تناسبا بين افتتاحية السورة وآياتها ، فكل سورة بدئت بافتتاحية معينة تكون أكثر كلماتها ، وحروفها مماثلة لها»[1] . لكنه يذكر لنا تعليلات لعدم إمكانية استبدال الافتتاحات .

والزركشي ـ رحمه الله ـ ذكر ذلك في الحروف المفردة ، وكشف عن العلاقات الصوتية بين مطلع السورة ومقصدها ، يقول : «ومن ذلك ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ . . .﴾ فإن السورة مبنية على الكلمات الكافية من ذكر القرآن ، ومن ذكر الخلق . . . وسر آخر هو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح»[2]، وضرب مثلا أيضا بسورة ﴿ صٓ﴾ وما اشتملت عليه من الخصومات .

وكان كلامهم ـ كما ترى ـ ذا صلة وثيقة بشأن بيان العلاقات ، وكان اتساع اجتهاداتهم بشأن الحروف المقطعة ، منبها لنا إلى فهم واستخراج العلاقات في فواتح سور الذكر الحكيم كله .

والدكتور عبد العظيم المطعني يمضي في هذا النسق فيذكر لنا خصائص السور المفتتحة بالشرط ، ويلحظ أنماط الأساليب داخل هذه السور ، وكان مما قال في هذا الشأن : «والقيمة البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها ـ والله أعلم ـ آثر القرآن افتتاح هذه السور بها هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطا ملاحظا فيه ترتب

(١) الحروف المتقطعة في أوائل السور القرآنية ، ص٩٣ .
(٢) البرهان ١/١٦٩، ١٧٠ .

المسبب على السبب ، فإذا ذكرت أداة الشرط ، وأردفت بفعل الشرط ، تشوفت النفس إلى ذكر ما سيكون ، فإذا ذكر الجواب بعد هذه الإثارة ، وهذا التشويق تمكن أيما تمكن»[1].

فقد تمخض حديثهم في الحروف المقطعة عن الكشف عن بعض العلاقات الصوتية والعلاقات التركيبية ، فكان لأحد الباحثين أن يعمم ذلك في الذكر الحكيم فيقول : «وقد ضمَّن الله فاتحة كل سورة ما اشتملت عليه تلك السورة من المقاصد النافعة للبشر في الدين والدنيا ، وأبرز ذلك في عبارة هي الغاية ، فيما عرف من براعة الاستهلال ثم صرف المعاني من غرض إلى غرض»[2] .

وكأن كلامهم في هذه القضايا التي أشرنا إليها بيان لطرائق الكشف عن علاقات المطالع بالمقاصد ، ويمكن أن يكون كلامهم في القضيتين الأوليين أطرا عامة تهدى في موضوع دراستنا .

* * *

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ١/١٦٣، ١٦٤ .

(٢) إعجاز القرآن ، ص ٧٢ ، دكتور السيد الحكيم .